

دور الحجّ في ترسيخ السلام في العلاقات الاجتماعية

تأليف: محمد مهدي الأصفي

أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً (١)

من مهام الحج تحقيق السلام في العلاقات الاجتماعية، وتوفير فرصة نموذجية للسلام في العلاقات فيما بين الناس، في فترة الإحرام في الحج، وتوفير رقعة نموذجية من الأرض؛ لتمكين السلام في العلاقات الاجتماعية هي رقعة الحرم.

ولكي نعرف موقع السلام في هذه الرحلة، لا بد من أن نستعرض المراحل الأساسية فيها بإيجاز شديد، بالقدر الذي نستطيع أن نتعرف فيه علي مواقع السلام في هذه الرحلة الإلهية.

الحج رحلة الأنا والذات إلي الله علي الطريقة الإبراهيمية أو اختزال لهذه الرحلة الشاقة التي قطعها من قبل أبونا إبراهيم (عليه السلام) ، علي الطريقة الرمزية التي تعتمدها فريضة الحج بصورة واضحة.

هذه الرحلة تبدأ مهمتها من الميقات، وتنتهي بطواف النساء وطواف الوداع والآن نشير بإجمال إلي الأشواط الرئيسية التي يقطعها الحاج في هذه المرحلة من الأنا إلي الله تعالى.

١- التحرر من الأنا:

تبدأ هذه الرحلة في الميقات بتجاوز الذات والأنا، ومحاولة صهر الذات والأنا في المسيرة الإيمانية إلي الله تعالى، وهذه هي المرحلة الأولى في هذه الرحلة الإلهية.

وتصب هذه الذوات - بعد انسلاخها عن الأنا، ومختصات هذا الأنا - في الحشد البشري الكبير، في الطواف حول البيت، كما تصب السواقي والأنهر الصغيرة في البحر الكبير، فلا تستطيع أن تميز - بعد ذلك - أين هي مياه هذه السواقي من البحر الكبير، وهي رحلة شاقة وذات معاني كبيرة في حياة الإنسان، تستحق منا الكثير من التأمل والتفكير.

تبدأ هذه الرحلة من الميقات، حيث يتجرد الإنسان فيه من ذاته وأهوائه، وخصائصه التي تفرزه عن الآخرين وتفردته. . وتحجزه عن الانصهار في المسيرة الإلهية الحاشدة، التي لا يتميز فيها الأفراد، ولا يحجز بعضهم عن البعض شيء من هذه النوازع، والفوارز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض. .

إن الميقات حد فاصل، بين الأنا وبين الجماعة المؤمنة. فقبل أن يدخل الحاج الميقات يعيش كما يعيش سائر الناس الأنا تمييزاً وتشخيصاً. وللأنا تظاهر وبروز في حياتهم، وللأنا سماته معالمه الواضحة. فإذا دخل الميقات تضاعف الأنا وخف صراخه وصوته وفقد معالمه ومميزاته، وفقد لونه وصبغته الصارخة، وهذا الانقلاب في الشخصية والموقع يتم في الميقات. ويرمز إلي هذا الانقلاب (لباس الإحرام) .

ة الرمز. فعند

الميقات يتجرد الحاج عن كل ملابسه وما تحمله من سمات شخصية وطبقية وقومية وإقليمية. إن لباس الإنسان يحمل هويته ويحمل الإشارة إلي شخصية الانسان وانتماؤه القومي والاقليمي والعقدي وطبقته مهنته ودرجته في الثراء والفقر والمستوي الاجتماعي. فإذا بلغ الميقات تجرد عن ملابسه، ولبس ثياب الإحرام إزاراً ورداءً. . . وكانا قطعيتين من القماش، لم يستعمل فيهما الخيط، كالآخرين علي نحو سواء في غير بذبح ولا شرف ولا تمييز، وخلع عن نفسه ملابسه التي كانت تحمل هويته وتعبّر عن شخصيته. إن هذه الخطوة الأولى في الميقات تعبّر عن انسلاخ الانسان عن هويته وشخصيته وأنانيته وتعبّر أيضاً عن العبور علي الذات وتجاوز الأنا. وكما يجرد الميت عن ملابسه، لأن دور الأنا

في حياته قد انتهى، ولم يعد للأنا حجم ولا دور ولا شكل في المرحلة الجديدة من حياته، كذلك الميقات مرحلة أخرى من الحيات ضمن هذه الحياة الدنيا، يتجرد فيها الحاج عن هويته وأنانيته، وينسلخ عن ذاته ليدخل الميقات، وكان الميقات مصفاة، وأول شيء تأخذه هذه المرحلة من الإنسان هو ذاته، فإذا تجرد عن الأنا وانسلخ عن ذاته حق له أن يتجاوز الميقات إلي الحج، وما لم يتخلص الإنسان عن ذاته فلا يحق له أن يتجاوز الميقات إلي لقاء الله. فإذا خلص في هذه المصفاة من ذاته اجتاز الميقات وتوجه إلي الحج. وإن أكثر ما يثير المتاعب في حياة الناس ويعكر العلاقة فيما بينهم هو التصادم الذي يحدث بين الذوات والأنانيات، وعندما تذوب الذات عند الانسان وتنصهر، ويخلص الانسان من طغيان الأنا، ينتهي شطر كبير من مشاكل الإنسان، ولقاءاته السبيلة مع الآخرين، وما يستتبعه من صدام وتردي العلاقة، وحالة الأثرة والأنانية، وحب الذات، فإذا خلصت حياته من الذاتية والأنانية تمكن أن يسلم من هذه المشاكل والمتاعب التي تعج بها حياة الناس في المجتمع، واستطاع أن يضع حياته وعلاقاته الاجتماعية علي أسس سليمة وأن يحكم السلام في علاقاته مع الآخرين.

التجمل والترف:

وفي الميقات يختص الإنسان مع خصلة أخرى من خصال الأنا، وهي خصلة ممدوحة لو كانت في الحدود المعقولة، التي لا تستأثر باهتمام الانسان كله ولا تملك إرادته ولا تحكمها، فإذا تحولت هذه الخصلة إلي خصلة حاكمة علي إرادته كانت صفة ذميمة من صفات الإنسان، وتلك هي خصلة التجمل، فهي خصلة ممدوحة في الحدود التي تظهر علي الانسان نعم الله تعالي وفضله، فإذا تحولت إلي خاصية من خواص الذات، مهمتها إبراز الذات وإظهارها، لا إبراز نعم الله تعالي وفضله، تحولت إلي صفة ذميمة من صفات الذات، وسلبته القدرة علي تحمل الشظف والسير علي طريق ذات الشوكة.

ي - في فترة

الإحرام - عن هذه الخصلة، ويحرم عليه الطيب والتجمل، حتي بالنسبة للنساء، فيما يتجاوز الحد المألوف للمرأة في التجمل، وذلك لتمكين الإنسان من هذه الخصلة التي تشكل حالة تظاهر للأنا، وحالة ترف تؤثر تأثيراً سلبياً علي إرادة الإنسان، وقدرته في مواجهة متاعب الطريق، إذا لم يعمل علي تعديل وتهذيب هذه الخصلة، وإرجاعها إلي نصابها الممدوح، الذي يقره الإسلام ويأمر به.

سلطان الهوي والشهوات:

وفي الميقات يمر الأنا بتصفية ثالثة، وهي تخليص الإنسان من سلطان الهوي والشهوات والغرائز، وهي مسألة في غاية الدقة في الإسلام فقد قلنا إن تخليص الإنسان من سلطان الهوي والشهوات، ولم نقل من الهوي والشهوات ذلك لأن الإسلام لا يكافح الأهواء والشهوات في نفس الإنسان، وإنما يعتبرها ضرورة من ضرورات الحياة ومن دونها تختل الحياة، وإنما الذي يكافحه الإسلام هو سلطان الهوي، والشهوات علي الإنسان وإرادته، وليست الأهواء والشهوات في حد ذاتها مصدراً للانحراف والسقوط في حياة الانسان، وإنما الانحراف والسقوط يأتي من ناحية سلطان الهوي علي إرادته، فإذا تمكنت الأهواء منه، وتحكمت الشهوات عليه وخضع واستسلم لها، عند ذلك فقط يتمكن الشيطان منه، ويتعرض الانسان للسقوط والانحراف. ولذلك فإن النهج الإسلامي في التربية يعمل علي ترويض الأهواء والشهوات وتطويعها لإرادة الإنسان، وتمكين الإرادة منها، دون أن يكافحها ويحاربها ويستأصلها ويصادرهما.

والصوم نموذج واضح لهذا المنهج التربوي. والميقات هو الآخر يقع في هذا الخط التربوي. ففي الميقات يتعرض الانسان لتصفية واسعة في (الأنا) و (الهوي) ، ويمتص الميقات من

نفس الانسان سلطان هاتين الخصلتين، ويسمح له بالدخول في رحاب ضيافة الله - تعالى - بعد أن يجرده من هذه النزعة الحيوانية التي تغطي علي تصرفاته وتحكم إرادته وفعله. والهوي عندما يحكم الإنسان يتحول إلي مصدر للشر في علاقاته وحياته الاجتماعية، ويسلب الأمن والسلام في حياة الناس، فليس ما بين الناس من خلاف وصراع وصدام مصدره الاختلاف في الرأي غالباً وإنما يعود السبب في نسبة كبيرة وواسعة في هذه الخلافات إلي عامل الهوي في العلاقات الاجتماعية ولالإمام الخميني (قدس سره) كلمة ذات دلالة عميقة فيما يقول قدس سره: (لو أن مئة وأربعة وعشرين ألف نبي عاشوا في مكان واحد لما اختلفوا فيما بينهم، لأنه لا سلطان للهوي في نفوسهم) .

لاب هو إضعاف

الأنا والذات، وخصال وخصائص في حياة الإنسان. فإذا تجرد عن ذلك كان موءهلاً للدخول في رحاب ضيافة الله في الحج.

ومن عجب أن المذاهب الفكرية المادية تؤكد عكس ذلك تعزيز الأنا وتثبيت واعتماد عنصر الاعتداد بالنفس، وتنمية حالة الغرور والعجب. بخلاف الإسلام الذي يبن منهجه التربوي علي أصل مكافحة الأنا وإضعافها وتحجيمها، وتحويل الإنسان من محور الأنا، إلي محور حاكمية الله تعالى وسلطانه في حياته، ويدعو الإنسان إلي التحلل من هذا المحور والارتباط بالمحور الرباني والانصهار فيه قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (٢) .

٢- الانصهار في الجماعة:

فإذا تجرد الإنسان عن الأنا وانسلخ عن ذاته وجد نفسه فجأة في وسط حشد بشري كبير، لا يمتاز بعضهم عن بعض، ولا يكاد يفرق بينهم شيء، يتحرك ضمن موج بشري كبير هادر، ينطلق من الميقات إلي الكعبة، كما تصب الأنهر في البحر من كل ميقات من هذه المواقيت المعروفة، التي وقتها رسول الله (صلي الله عليه وآله وسلم) ، تجري أنهر كثيرة من الناس تصب في الحرم حول الكعبة، فتتجمع هذه الأنهر حول البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ومعه ابنه اسماعيل (عليهما السلام) وفي هذا التيار البشري العظيم يتضاءل عنده الإحساس بالأنا، حتي لا تكاد تشعر به حواسه ومشاعره، فلا تري في المطاف أفراداً يتحركون، وإنما تري كتلة بشرية واحدة من الناس تطوف حول البيت العتيق.

ولو أن الحاج الذي تجرد في الميقات عن الأنا، لم يكن يصب في المطاف في الجماعة المؤمنة، لكان يضيع ويفقد مقومات وجوده وشخصيته، ولكنه لا يكاد يتجرد عن الأنا ومعالمه وحدوده حتي يصب في الجماعة الكبيرة، كما تصب قطرات الماء في النهر الكبير، ويعود في المطاف إلي لون جديد من الحياة، وإلي حياة جديدة لم يألفها من قبل بهذه القوة والفاعلية، ولم يذوقها بهذه الصورة تموت فيه الأنا، ويبعث الله في نفسه الإحساس بالجماعة، وينتقل إلي طور جديد من الحياة أهم خصائصه غياب الفردية، وحضور الجماعة؛ ويتكسر هذا الإحساس لدي الانسان في المطاف وفي السعي، وفي الموقف في عرفات، وفي الأفاضة إلي المزدلفة، وفي المزدلفة، وفي مني، وفي العودة إلي الطواف والسعي يتضاءل لدي الانسان المسلم الإحساس بالأنا، ويتأكد لديه الإحساس بالجماعة المسلمة، وبأنه عضو من جسم واحد، وليس فرداً من مجموعة إنسانية، وبأن هذه الأمة كيان واحد ومصير واحد وما يصيبها من خير وشر يصيب الجميع، وبأنه وحده لا يستطيع أن يتحرك إلي الله علي خطي إبراهيم (عليه السلام) ، إلا أن يذوب في هذا الحشد البشري الكبير المتجه إلي الله.

يتمايزون فيما

بينهم، ويتزايدون، ويتفاخرون، ويتجادلون، ويضر بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم علي بعض،

وتجمعهم المجامع من المدن والضواحي والقرى فتجتمع في هذه المجامع النزعات المتضاربة والأهواء المتخالفة والرغبات المتضادة، فتكون الجامع البشرية ساحة للصراع والخلاف. أما عندما يتجاوزون الميقات إلى الحرم، ويصبون - من خلال قنوات المواقيت التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الحرم، فإنهم يتحولون إلى أمة واحدة، ويتحركون باتجاه واحد ويلبسون دعوة واحدة ويلبسون زيّاً واحداً، ويطوفون حول كعبة واحدة، ويسعون في مسار واحد ويؤدون مناسكاً واحدة، لا يختلفون ولا يتجادلون، ولا يتفاخرون، ولا يتضاربون، ولا يؤذي بعضهم بعضاً، وكأن الحرم يصهرهم في بوتقة واحدة، ويجعل منهم كياناً جديداً يختلف عما كانوا عليه.

الحرم الآمن:

وأبرز خصائص هذا التركيب الجديد للمجتمع البشري الذي يستحدثه الحرم في حياة الناس هو الأمن، والاحساس بالأمن. إن هذا الأمن من خصائص ونتائج هذا التركيب البشري الجديد الذي يجده الناس في الحرم، وهو في نفس الوقت من أسبابه وموجباته. فإن الناس إذا شعروا بالأمن بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً دون حذر، وتعامل بعضهم من بعض، وتلاقوا، وتآلفوا، وتعاونوا. فالأمن يعد الناس ليكونوا أمة واحدة، والأمن يعطي للناس هذه الفرصة، التي تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية، التي يعيشها الناس عامة إلى هذا النمط الجديد، الذي يريده الله تعالى لعباده، والذي يرسم الحرم نموذجاً له، كما يصح العكس أيضاً، فإن الأمن والإحساس بالأمن هو النتيجة الطبيعية لهذا اللون الجديد من الحياة الاجتماعية. فإن الناس عندما يحشرون في الحرم لا يختلفون ولا يتشاجرون ولا يتفاخرون ولا يتزايدون ولا يتضاربون.

الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة:

والله تعالى يريد أن يكون وجه الأرض كله آمناً للناس، يعيش الناس بعضهم مع بعض في أمن ودعة وسلام لا يحق بعضهم علي بعض، ولا ينوي أحد لأحد شراً، يؤثر بعضهم بعضاً علي نفسه، ويحب بعضهم بعضاً.

يقول تعالى في صفة المهاجرين والأنصار في الصدر الأول من هذا الدين. . . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون علي أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه، فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم (٣) . ولكن الناس يرفضون أن يعيشوا كما يريد الله تعالى لهم.

للناس. بدعاء

عبده وخليه إبراهيم (عليه السلام) : وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر (٤) .

هذا هو دعاء العبد الصالح إبراهيم (عليه السلام) : وقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليه إبراهيم (عليه السلام) فقال: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً (٥) .

والمثابة: المحل الذي يرجع إليه الناس. وقد جعل الله - تعالى - البيت مثابة للناس يجمع الناس ويرجعون إليه، ويقصدونه من كل فج عميق، ثم جعله آمناً يأمن فيه الناس بعضهم من بعض، ولا يحذر فيه أحد الآخرين علي نفسه؛ يقول تعالى: أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً (٦) ، وجعل رقعة الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة كلها، كما جعل الشهر الذي يتم فيه الحج (ذوالحجة) من الأشهر الحرم. يقول الله تعالى: ومن دخله كان آمناً (٧) .

وحتي الجدال الذي ينطوي علي نوع من العدوان علي الآخرين يحرمه الله تعالى علي الحجاج. فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحج (٨) .

فإن الجدل منفذ للعدوان بين الناس. وكثير من العدوان يبدأ بين الناس من الجدل الذي يسعى فيه كل من الطرفين المتجادلين إلي إثبات الذات وتجاوز الطرف الآخر. والأمن في الحرم أمن شامل، يشمل حتي الحيوان والنبات، فلا يجوز الصيد في الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشجار في منطقة الحرم إلا في حالات خاصة يذكرها الفقهاء. . وحرمه الصيد وقطع النباتات لا تخص حالة الاحرام، فإنهما تحرمان علي المحرم والمحل معاً في منطقة الاحرام. والحرم في الاسلام عينة صغيرة لساحة الحياة كلها، والذي يجب أن يعرف رأي الاسلام في الحياة؛ فإن هذه العينة الصغيرة والرقعة المحدودة من الأرض تجسد تخطيط الاسلام لساحة الحياة الواسعة، فإن العلاقة فيما بين الناس والارتباط والتلاقي هو الافراز الطبيعي للحياة الاجتماعية. فمن أجل هذه العلاقة واللقاء والتلاقي خلق الله - تعالي - الانسان اجتماعياً وأعدّه للحياة الاجتماعية. ولا يبلغ الانسان الكمال والنضج الذي أعدّه الله تعالي له إلا في وسط هذه العلاقات واللقاءات والتلاقي في الحياة الاجتماعية. فلو أن انساناً اعتزل الحياة وعاش وحده في جزيرة قاصية لم يبلغ بالتأكيد النضج والكمال الذي أعدّه الله - تعالي - له. وهذه اللقاءات والعلاقات إنما تثمر وتعطي وتنتج في حياة الانسان، فيما إذا توفر له الجو السليم، الأمن والسلام. أما عندما تكون هذه العلاقة في جو من الريبة والحذر، والخوف والقلق والعدوان والكيد والمكر، فإن هذه العلاقة والارتباط فيما بين الناس لا تكاد تثمر هذه الثمرة، ولا تكاد تبلغ بالانسان النضج والكمال، الذي يطلبه الانسان في الحياة الاجتماعية، من خلال هذه العلاقات واللقاءات والارتباطات، بل قد تعود العلاقة في مثل هذا الجو إلي نتائج سلبية في حياة الانسان.

فالاسلام يخطط بناءً علي هذا الفهم لضرورة العلاقة وحدودها في حياة الانسان، ليجعل العلاقة فيما بين الناس في الحياة الاجتماعية في جو أمن وسليم، فيأمن الانسان الآخرين علي نفسه في حضوره وغيبته، وفي نفسه، وعرضه، وماله، ويأمن علي نفسه من السنة الآخرين وأيديهم، ومن مكرهم وكيدهم وعدوانهم، فيعيش في جو من الأمن الشامل، ويبني علاقاته كلها مع الآخرين في هذا الجو الأمن، في السراء والضراء، وفي التجارة والبيع، وفي الزواج والعلاقات الاجتماعية، وفي علاقاته مع أصدقائه وزملائه، وفي علاقاته مع أعضاء أسرته، وفي ارتباطه بمن هو فوقه ومن هو دونه، وحينما يأخذ وحينما يعطي، وحينما يحتاج إلي الآخرين وحينما يحتاج إليه الآخرون. . .

اعية علي كل

الأصعدة في جو من الأمن والسلام، لتعطي هذه العلاقة الثمرات المطلوبة منها في الحياة الاجتماعية، ويخطط الاسلام ويعمل ليجعل الحياة الاجتماعية حياة آمنة مطمئنة ليتعايش الناس فيها بسلام.

والحرم عينة صغيرة نموذجية في الحياة الآمنة والمطمئنة التي يطلبها الاسلام. . والاحرام عينة أخرى نموذجية للحالة التي يطلبها الاسلام للناس في الحياة الاجتماعية، في علاقة الناس بعضهم ببعض. ويعود الحجاج من الاحرام والحرم إلي واقع حياتهم ليأخذوا معهم النموذج الإلهي للحياة ولللاقات الاجتماعية، ويعيشوا حياتهم بها.

٣- الانتقال إلي المحور الإلهي:

وهذه هي المرحلة الثالثة، من رحلة الحج الابراهيمي.

في المرحلة الأولى يتخلص الانسان من فرديته وأنايته وأعراض هذه الأناية.

وفي المرحلة الثانية يصب في الحرم في الجماعة المسلمة، وينصهر في هذه الجماعة (الامة) .

وفي المرحلة الثالثة وهي الغاية الأخيرة في هذه الرحلة تصب هذه الجماعة في المطاف حول الكعبة.

والكعبة في لغة الحج الرمزية رمز للمحورية الالهية في حياة الانسان. وإذا استطاع الانسان في المرحلة الأولى من هذه الرحلة، أن يتخلص من جاذبية محور الأنانية في حياته، فإن المحور الالهي يجذبه جذباً قوياً بطبيعة الحال.

وانجذاب الانسان إلي هذا المحور، أمر طبيعي كامن في عمق فطرة الإنسان، والأنا هو الذي يحجز الإنسان عن هذه الجاذبية، فإذا تحرر عن حاجز الأنا فإن الجاذبية الإلهية تجذبه. والطواف بعد الإحرام رمز لذلك. فإن الاحرام من الميقات يرمز للتحرر من الأنا. والطواف حول البيت يرمز إلي الانجذاب إلي الله تعالى، والحركة حول المحور الالهي في الحياة. وعليه فإن حركة الطواف نقلة في حياة الانسان من الأنا إلي الله تعالى. إنه تعبير رمزي عن التوحيد في حياة الانسان المسلم، إلا أن هذا التوحيد ليس هو التوحيد النظري، الذي يعرفه الناس، وإنما هو توحيد العبودية لله، وتوحيد الحب والولاء والاهتمام، كما ترسمه الآية المباركة من سورة الأنعام: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٩) .

إن الطواف يرمز إلي الحركة الانسانية الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الالهي في التاريخ، وإنما لننظر من بعيد إلي حركة التاريخ، ففري أن حركة التاريخ تجسد (التوحيد) في حياة الانسان، وأن الأنبياء (عليهم السلام) وأمهم - إلا في فترات قصيرة جداً - يجسدون هذه الحركة البشرية الدائمة حول محور الألوهية. ولكن عندما ندخل نحن ضمن هذه الحركة فسوف نواجه ألواناً من المضايقات والأذى والمشاكسات من الهوي في داخل أنفسنا، ومن الطاغوت في المجتمع، ومن شياطين الجن والإنس الذين يضايقون الناس في حركتهم إلي الله.

الأعلي إلي

المطاف تري حركة دائرة الجماهير الطائفين بصورة مستمرة، وكأن أرض المسجد الحرام تطوف بهم حول البيت في حركة منظمة وهادئة، أما إذا دخلت بنفسك في المطاف التقيت بالوجه الآخر لهذه الحركة الانسانية حول المحور الالهي، من المعاناة ومواجهة العقبات والمضايقات، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عن الوجه الأول الهادئ والمريح. لماذا عبر الانصهار في الجماعة؟

في هذه المرحلة نحن نفهم المنطلق والغاية في حركة الانسان بصورة دقيقة، فالمنطلق الذي ينطلق منه الانسان هو تجاوز الأنا والذات ويعبر الاحرام في الميقات عن هذا المنطلق. والغاية هي الحركة إلي الله وتوحيده - تعالى -، ويرمز الطواف إلي هذه الغاية. ولكن الانسان في الحج يصل إلي هذه الغاية عبر الانصهار في الجماعة المسلمة، ومن دون الانصار في الأمة المسلمة لا يمكن الوصول إلي هذه الغاية. .

إن التخطيط الاسلامي للحج يؤكد علي حضور الأمة المسلمة وتواجدها في موسم الحج من كل فج عميق. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق (١٠) .

إن هذا الأذان والإعلان والدعوة الإلهية العامة للحج، من قبل الله ورسوله، والاستجابة من قبل الناس من كل فج عميق، يشكل بالتأكيد بعداً هاماً من أبعاد الحج.

وعندما نستعرض آيات الحج، والكعبة والبيت، في القرآن منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، نجد اهتماماً كبيراً بحضور الناس في هذا البيت، وفي هذا الموسم، وابلغ ما في ذلك تعبير القرآن عن بيت الله بأنه بيت الناس إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً. . (١١) .

ومن عجب أن الله تعالى يخص الناس - عباده - بأول بيت وأشرف بيت ويعلن عن أنه بيت للناس ثم يدعو الناس إليه والله علي الناس حج البيت .
وفي دعاء إبراهيم (عليه السلام) نجد أن إبراهيم خليل الرحمن، عندما أودع أهله وذريته بهذا الوادي القاحل غير ذي زرع، دعا الله تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (١٢) .
وأيضاً نجد في سورة البقرة وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً (١٣) .
فالبيت مثابة للناس يجتمع الناس حوله، ويثوب إليه الناس، ويجتمع الناس من كل حذب وصوب، ثم إننا في سورة المائدة نقراً جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس (١٤) .

الله - تعالى -

عباده أن لا ينفرد بعضهم عن بعض في الإفاضة، وإنما يفيض كلُّ منهم حيث أفاض الناس ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله (١٥) .
إذاً حضور الناس حول البيت وتواجدهم في الموسم، وانصهار الفرد داخل البيت والحرم في الناس شبيء أساس في الحج، في طريق حركة الانسان إلي الله تعالى.
وتنساءل بعد ذلك، لماذا؟

وهو سؤال مهم يرتبط بسر من أسرار هذا الدين، فإن هذا الدين يحرك الانسان إلي الله - تعالى - ولكن من خلال الحضور في وسط الناس. فالحج حركة إلي الله، ولكن من خلال الانصهار في الناس، والصلاة معراج كل مؤمن، ولكن من خلال الجماعة، وحتى الاعتكاف الذي هو نحو من الاعتزال عن الناس يتم في المسجد الحرام ومسجد النبي (صلي الله عليه وآله وسلم) والمسجد الجامع في الكوفة، والمسجد الجامع في أي بلد، وليس في أي مسجد معزول متروك، فتتساءل مرة أخرى لماذا لا تتم حركة الانسان إلي الله في الحج إلا من خلال الانصهار في الناس ومن خلال الحضور في وسط الناس؟ .
والجواب:

إن من غير الممكن أن يتجاوز الإنسان الأنا في عزلة من الناس، وهو شرط أساس في الحركة إلي الله تعالى.

والانسان قد يتصور إذا اعتزل الناس، وابتعد عن الحياة الاجتماعية، يتحرر من الأنا والهوي والشهوات والرغبات، ولكنه يخطيء كثيراً، فإن نزعات الأنانية تبقى مطوية في خبايا نفسه، وهو غير شاعر بها، فإذا دخل الحياة الاجتماعية واحتك بالناس، برزت هذه النزعات المخبوءة، علي السطح الظاهر من شخصيته، ولكن يمكن اجتثاث هذه النزعات والقضاء عليها إلا في وسط الحياة الاجتماعية.

إن هذه النزعات لا يمكن استئصالها إلا من خلال صراع مرير مع النفس في وسط الحياة الاجتماعية، ولا شك أن هذه النزعات، تختفي في حياة العزلة والرهبانية، إلا أنها تبقى كامنة ومخفية في النفس، فإذا صادفت فرصة مناسبة وجواً مناسباً تبرز مرة واحدة.
ولذلك لا بد من هذا الوسط الاجتماعي و الحياة الاجتماعية، والحضور في وسط المغريات والمثيرات ليستطيع الإنسان أن يتجاوز الأنا بصورة كاملة.

وحقيقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى: أن حركة الانسان إلي الله - تعالى - حركة شاقة عسيرة وصعبة، ولا يستطيع الإنسان أن يطوي هذا الطريق وحده، فإذا حضر نفسه في الجماعة المؤمنة، وانصهر في وسط الأمة هان عليه السير، واستطاع أن يطوي معهم هذا الطريق بكفاءة وجدارة ويسر.

ستعين بصيغة

الجمع، وليس بصيغة المتكلم الوحده، فإن الطريق إلي الله طريق صعب. وليس من شك أن سلوك هذا الطريق، وطى هذه المسافة مع الجماعة المؤمنة آمن وأسلم وأيسر.

ولذلك نجد أن الطريق إلى الله - تعالى - يتمّ في الاسلام، عبر الحضور في الجماعة المسلمة والانصهار فيها، وليس بمعزل عنها.
الأبعاد الثلاثة للحج:

تلك هي المراحل الثلاث التي يرسمها الحج بلغته الرمزية الخاصة:
١- مرحلة تجاوز الذات.

٢- مرحلة الانصهار في الجماعة.

٣- مرحلة الحركة إلى الله.

وهذه المراحل الثلاث هي الأطراف الثلاثة في علاقات الانسان؛ فإن للانسان علاقة بالله تعالى، وعلاقة بالمجتمع والكون، وعلاقة بنفسه.

وهذه العلاقات منظورة جميعا في الحج. ومن عجب أن تكون علاقة الانسان بالجماعة وانصهاره فيها، هو الجسر الذي يربط الانسان بالله تعالى، وليس هو الحاجز والحاجب والعقبة كما في التصورات الرهبانية.

الهوامش:

(١) العنكبوت: ٦٧.

(٢) الانعام: ١٦٢.

(٣) الحشر: ٩ - ١٠.

(٤) البقرة: ١٢٦.

(٥) البقرة: ١٢٥.

(٦) العنكبوت: ٦٧.

(٧) آل عمران: ٩٧.

(٨) البقرة: ١٩٧.

(٩) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

(١٠) الحج: ٢٧.

(١١) آل عمران: ٩٦ - ٩٧.

(١٢) إبراهيم: ٣٧.

(١٣) البقرة: ١٢٥.

(١٤) المائدة: ٩٧.

(١٥) البقرة: ١٩٩.